

الأسس النظرية لتحديد مفهوم النص في الدرس اللساني الحديث

أ/ صالح حوحو

جامعة محمد خيضر - بسكرة -

لقد ظهر "علم لسانيات النص" كعلم بديل لكل العلوم الأخرى التي جاءت لدراسة "النص"، حيث إن هذا العلم ورغم حداثة إذا ما قورن بالعلوم الأخرى قد حقق نتائج مبهرة في هذا الصدد، وقد حدد لهذا الأخير هدفا واحدا وهو وصف النص بكل حيثياته، وذلك من خلال دراسة الجمل المكونة له والعلاقات التي ربطت بين أجزائه، ثم وصف الأدوات والآليات التي ساهمت في ذلك التماسك وأدت إلى ذلك الاتساق والانسجام، ولعل ذلك كان سببا مباشرا في ظهور الكثير من الدراسات اللسانية التي تهتم بالنص. وتسايرا مع ذلك ظهر الكثير من العلماء الذين اهتموا بهذا العلم اللساني فكان من نتائج ذلك أن ظهرت مصطلحات لا يمكن لأحد إحصاءها أو الإحاطة بها.

و لما كان اهتمام اللسانيين منصبا حول النص من حيث نصيته أي من حيث شروط تماسكه و اتساقه فإن أبحاثهم قد تركزت بالدرجة الأولى على دراسة عناصر الاتساق النصي وهكذا وجدناهم ينجزون الدراسات التي تهتم بالكشف عن أسرار نصية النصوص والبحث في العناصر التي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في ذلك التماسك ويعد كل من الإحالة والاستبدال والحذف والوصل والترتيب والتضام والتكرير أهم تلك العناصر الاتساقية أو أهم تلك العناصر التي توفر الاتساق النصي. وعلى ضوء هذا المعطى كثرت الدراسات اللسانية التي تدرس هذه العناصر بشكل تفصيلي أو إجمالي، وقد كان الغرض من كل ذلك تحديد معالم نصية النص مهما كان ذلك النص شعرا أو نثرا، قصيرا أو طويلا مكتوبا أو غير مكتوب. ونحن في هذه الأسطر الآتية سنحاول المشاركة في ذلك النقاش اللساني الذي دار حول تحديد مفاهيم النص وشروط النصية والأسس التي انبنت عليها تلك المفاهيم، مستشهدين ببعض الآراء التي اتجهت هذا الاتجاه محددين في الأخير علاقة النص بالسياق طارحين الأسئلة الآتية:

- ما هو النص؟

- ما حدود النصية؟

- ما علاقة النص بالسياق؟

جاء في لسان العرب "لابن منظور" قوله في مادة: "ن ص ص" الآتي: >> النص: رفعك الشيء. نص الحديث ينص نصا: رفعه. وكل ما أظهر فقد نص. و نصت الطبية جيدها: رفعته. و وضع على المنصة أي على غاية الفضيحة و الشهرة و الظهور. و المنصة: ما تظهر عليه العروس لترى و نصصت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض... و أصل النص أقصى الشيء و غايته و نص كل شيء: منتهاه <<(1) و يضيف "الزبيدي" في تاج العروس في نفس المادة قوله: >> النص: التوقيف، و النص: التعيين على شيء ما، و كل ذلك مجاز، من النص بمعنى الرفع و الظهور. قلت: و منه أخذ نص القرآن و الحديث، و هو اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره: و قيل: نص القرآن و السنة: ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام <<(2) فمن خلال ما جاء في هذين القولين يمكن ملاحظة أن الإظهار هو المعنى الأكثر اقترابا من مفهوم النص، حيث من معانيه أظهر الشيء أي نصه أو نص عليه أو انتصه و كل ما أظهر فقد نص و على هذا سمي النص كذلك لأن فيه تصاغ المعاني لتظهر واضحة فتفهم و تستوعب. و قد وجدنا للباحث "الفقي" قراءة أخرى لهذين القولين و هي قراءة متميزة جاء فيها قوله: >> من الملاحظ أن المعنى - أي معنى النص - يدور حول محاور هي:

1- الرفع.

2- الإظهار.

3- ضم الشيء إلى الشيء.

4- أقصى الشيء و منتهاه <<(3).

و استطرده "الفقي" يشرح ذلك قائلا: >> و لا نريد أن نحمل النص أشياء لا ينطق بها، و لكننا نلاحظ أن الرفع و الإظهار يعينان أن المتحدث أو الكاتب لا بد له من رفعه و إظهاره لنصه كي يدركه المتلقي المستمع أو القارئ. و كذلك ضم الشيء، نلاحظ أن النص - في كثير من تعريفاته - هو ضم الجملة إلى الجملة بالعديد من الروابط، و كون النص أقصى الشيء و منتهاه، و هو تمثيل لكونه أكبر وحدة لغوية يمكن الوصول إليها؛ إذ يعد النص ممثلا للمستوى السادس من مستويات علم اللغة المتعارف عليها و هي المستوى: الصوتي، الصرفي، النحوي، المعجمي و الدلالي <<(4).

كما علق على ذلك الأستاذ "البطاشي خليل بن ياسر" بقوله: >> و تحتاج المعاني اللغوية السابقة إلى وقفة تأمل ، و لا ينبغي أن ننظر إليها النظرة التقليدية المعهودة ، بوصفها المعنى اللغوي انتظارا ل "المعنى الاصطلاحي" بل يجب أن نعددها خصائص و مميزات لما نطلق عليه نصا في الخطاب اللغوي المعاصر و هذه الخصائص ليست مقصورة على القدماء ، بل لن نجد فرقا كبيرا بينها و بين ما نظر له الباحثون في علم النص اليوم <<⁽⁵⁾ ، و كدليل على ما ذهب إليه "البطاشي" و غيره فإننا لاحظنا وجود الكثير من الإشارات و الأمارات في المصنفات القديمة تدل على أن علماءنا كانوا قرييين جدا في طرحهم و أفكارهم حول النص من المفاهيم المعاصرة التي جاءت تقنن له و تحده فقد صرح القدماء أن النص هو كل مجموعة من الألفاظ تدل على معنى معين بذاته و من ثمة كان القرآن نصا و الحديث النبوي الشريف نصا و كل قاعدة من الفقه نصا و هكذا دواليك. و ما ذلك إلا لوجود تلك الخصائص التي تميز النص عند اللسانين المعاصرين وجودها في القرآن و الحديث و سواهما. و لعل أبرز تلك الخصائص الضوابط ما نذكره في هذه الأسطر:

- الإبانة و إظهار المعاني.
- التنظيم و الترتيب.
- الشمول و تحقيق الغاية.
- السلامة من الأخطاء و الاستقامة في التعبير.
- التعيين و الدلالة المقصودة.

و كما هو ملاحظ فإن هذه الخصائص التي ذكرناها و التي يمكن أن تعد معايير للنص قد وقع عليها اتفاق كبير بين الدرس اللغوي القديم و الدرس اللغوي المعاصر ، حيث وجدنا الباحثين القدماء و المعاصرين يلحون إلحاحا شديدا على ضرورة وجودها في أي نص ، و لا يمكن لنا بأي حال أن نطلق على أي نص بأنه نص إلا إذا توافرت فيه هذه الخصائص أو المعايير ، كما أن غياب أي منها يعد ذلك انتقاصا له . و يأتي في هذا السياق كلام الأستاذ الباحث "عمر أبو حرمة" إذ يقول: >> لو أنعمنا النظر قليلا في المعنى المعجمي الذي قدمه اللسان ، لوجدنا أمارات تفيد كثيرا في الوصول إلى مراد العربية بالنص <<⁽⁶⁾ ، و حتى لا نغبط علماءنا القدماء حقهم يمكن القول أن إشارتهم لمفهوم النص لم تكن بعيدة كل البعد عما جاء به الدرس

اللساني الحديث و يفهم ذلك من خلال تلك الخصائص التي استقرأناها آنفا في تحديداتهم لمعاني مادة "نصص" ثم إشارتهم إلى أن القرآن نص و الحديث نص و غيرهما .
و مما يشجعنا على التأكيد أن علماءنا القدماء لم يكونوا يجهلون مصطلح النص هو استعمالهم له في مصنفاتهم و كتبهم اللغوية و النحوية و البلاغية بشتى الصيغ و الصور و قد قدم إلينا الأستاذ "البطاشي" بعضا من تلك الاستعمالات و هو مشكور على ذلك و سنذكر هاهنا أمثلة عنها:

قول "ابن جني" : >> و قد علمت بذلك تعسف المتكلمين في هذا الموضوع و ضيق القول فيه عليهم حتى لم يكادوا يفصلون بينهما ، و العجب ذهابهم عن نص سبويه فيه ، و فصله بين الكلام و القول و لكل قوم سنة و إمامها <<(7).

و الملاحظ أن كلمة "نص" في الموضوع السابق قد استعملت بمعنى الدال على الشيء المتضمن لرسالة معينة و هو أيضا استعمال يقدم للمتلقي أو القارئ معلومة أو حكما يجهله ، و الأمر نفسه ينسحب على النصوص الموالية.

قول "ابن هشام" : >> أما الأول فلأن عطف البيان في الجوامد بمنزلة النعت في المشتقات فكما أن الضمير لا يبعث كذلك لا يعطف عليه عطف بيان ، ووهم الزمخشري فأجاز ذلك ذهولا عن هذه النكتة و ممن نص عليها من المتأخرين أبو محمد ابن السيد و ابن مالك و القياس معهما في ذلك <<(8).

قول "ابن قتيبة" : >> قوله نص الحديث إلى فلان أي رفعه إليه و هو من النص في السير و هو أرفعه <<(9).

قول "القلقشندي" : >> و اعلم أنه لا أصل لذلك من الشريعة و لم يرد فيه نص من كتاب و لا سنة <<(10).

و يعلق أستاذنا "البطاشي" بعد سرده لهذه النصوص قائلا: >> و المتأمل في المعاني السابقة للنص يلاحظ أنها ليست بعيدة عن المفهوم الاصطلاحي له فهي - و إن لم تصرح بذلك - تتضمن سمات النص و خصائصه <<(11) ، و ذلك باعتبار أن كل المعاني الواردة حول مفهوم النص ترتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الإظهار و الإبانة ، ذلك المفهوم المتضمن في مادة

"نصص" كما أشرنا إلى ذلك آنفا و يأتي كل ذلك كدليل على وجود النص في الدرس القديم بمعان تتفق كثيرا مع المعنى اللساني الحديث له.

ازدادت الحاجة إلى تحديد مفهومه و ذلك من خلال الاهتمام به ، فكان من ذلك أن اعتنت به الدراسات اللسانية عناية كبيرة إلى درجة أن صار للنص علما قائما بذاته فسمي علم النص ، و قد كانت "جوليا كريستيفا" تلك اللسانية الفرنسية ذات الأصول البلغارية في مقدمة هؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب فوضعت كتابها تحت عنوان << علم النص >>⁽¹²⁾ ، و قبل استعراض بعض التعاريف اللسانية الحديثة للنص نود أن نشير إلى أن أغلب الباحثين قد اتفقوا على أنه - أي النص - جملة أو أكثر وضعت للتعبير عن موضوع واحد أو أكثر و يجب في النص حتى يكون نصا مراعاة جملة من الضوابط التي لخصها لنا الأستاذ "الفقي" على النحو الآتي:

- كون النص منطوقا أو مكتوبا أو كليهما.
- مراعاة الجانب الدلالي.
- مراعاة التحديد الحجمي "طول النص".
- مراعاة الجانب التداولي.
- مراعاة جانب السياق ، و هو متعلق بالمعيار السابق.
- مراعاة جانب التماسك ، و هو أهم المعايير التي يقوم عليها التحليل النصي.
- مراعاة الجانب الوظيفي للنص.
- مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقي.
- الربط بينه و بين مفاهيم تحويلية، مثل الكفاءة و الأداء ... و غيرها.
- إبراز كونه مفيدا⁽¹³⁾.

و قبل الخوض في تحديد مفهوم النص نشير إلى أن اللسانيين في تحديدهم للنص تباينت منطلقاتهم و أسسهم ، الأمر الذي جعل مفاهيمهم له تختلف من باحث إلى آخر ، و من أهم تلك الأسس التي عرف في ضوءها النص نجد أساس المقارنة بينه و بين الجملة و بهذا الأساس سنبدأ.

يعد "كولنج" من أبرز اللسانيين الذين حاولوا وضع تعريف محدد للنص و ذلك لضبط مفهومه وجعله واضحا في الأذهان وقد كان ذلك في قوله: >> النص هو موضوع رمزي علائقي تغلب عليه السمة الكلامية ذو شكل مكتوب يدويا أو مطبوع في شكل هيئة مادية <<⁽¹⁴⁾، يقصد بالرمز هنا أو النص الرمزي هو تلك العناصر المعجمية المسيطرة التي تحمل المعنى ، بشرط أن تقوم على أساس نظام علائقي و أما السمة الكلامية فالمقصود بها ما كان داخلا في الاستعمال اللغوي و ليس ما بقي في إطار النظام اللغوي. كما يتحدد النص عند "كولنج" كونه مكتوبا أم لا ، أو مستقلا أو لا ؟ دون أن ينسى ضرورة اشتماله على وظيفته التخاطبية معطاة أو مفترضة.

و يرى "تزيقتان تودوروف" أن النص: >> يمكنه أن يتطابق مع جملة كما يمكنه أن يتطابق مع كتاب كامل. و إنه ليتحدد باستقلاله و بانغلاقه حتى و لو كانت بعض النصوص غير مغلقة بمعنى ما. و هو يكون نسقا يجب ألا يتطابق مع النسق اللساني، و لكن أن يوضع في علاقة معه: إنها علاقة تجاور و تشابه في الوقت نفسه <<⁽¹⁵⁾ و هو تعريف قام على أساس المقارنة بين النص و الجملة.

و أما "رولان بارت" فيركز في تحديده لمفهوم النص على نظرية القراءة ، أي على الدور الذي يلعبه المتلقي أو القارئ. فالنص عنده بعد أن كان نظاما مختزنا لا قيمة له صار نموذجا أو شكلا أدبيا يعطي الكلام طاقته الإنتاجية ، و النص عنده أيضا هو عبارة عن عملية إنتاجية مستمرة متجددة بتحدد القراءات مما يمثل حلقة وصل دائمة أو اتصال مستمر بين صاحب النص و قارئه⁽¹⁶⁾. كما يرى أن النص نسيج كلمات منسقة في تأليف معين، بحيث يفرض شكلا وحيدا و ثابتا قدر المستطاع ، كذلك هو مرتبط بالكتابة ارتباطا وثيقا ، لأنه رسم بالحروف مما يكسبه هالة روحية. بالإضافة إلى ما تشتمل عليه كلماته و جملة من دلالات موحية. و هكذا اكتست الكتابة أهمية قصوى و مكانة كبيرة لدى "رولان بارت" في تعريفه للنص ، باعتبارها ضمان و صيانة له من الاندثار و الضياع مما يمنحه صفة البقاء و الخلود.

و يؤكد "قولفديتريش" في حديثه عن النص أنه عبارة عن وعاء للمعلومات، كما يؤكد أنه: يقوم على عمليات داخلية لا يشترط في الكاتب أو منتج النص الوعي بها أو أن يكون واعيا لها ثم نجد يحدثنا عن فكرة المقصدية في النص حيث يلح أن كل ما يرد في داخل النص يجب

أن يكون متعلقا تمام التعلق بمقاصده ، ثم نجد بعد ذلك ينفي الحرية عن منتج النص ، فالكاتب عنده: << مقيد بقيود و حدود منظورية >>⁽¹⁷⁾.

ثم يتجه "قولفديريش" إلى الحديث عن الدور المهم الذي يلعبه المتلقي أو القارئ في بناء النص حيث يقول أن : << النص تحفيز لخلق بناء فكري خاص يعزو للنص معنى في موقف فعلي ، يجعله إذن مهما للمتلقي يحفز على هذا النشاط وجوده في الموقف و يجري هذا العزو للمعنى أحيانا بوعي و بقصد فالنص يقدم للمتلقي مساعدة طارئة و يريد بدهاة أن يؤثر فيه و يوجه أيضا ، و لكن يجب على المتلقي أن يصير هو نفسه فاعلا >>⁽¹⁸⁾ ، و بعبارة أبسط يمكن القول أن النص عند "قولفديريش" هو منتج من المعاني المنظمة بواسطة علاقات داخلية تضمن استمراره - أي استمرار النص - الذي من طبيعته تحفيز القارئ المتلقي ، إذ أن المتلقي عنده ليس مجرد قارئ بل يجب أن يكون فاعلا و مشاركا في صناعة هذا المنتج النصي باعتبار أن النص يقدم المعلومات للمتلقي و على هذا الأخير التفاعل معها بشكل إيجابي و ذلك حتى يتحقق الهدف من خلق المنتج.

و أما "ديفيد كريستال" في تعريفه للنص فيؤكد أنه التسجيل الحرفي للحدث التواصلية ملحا في ذلك على الامتداد، و كونه منطوقا أو مكتوبا ، مؤكدا الوظيفة الاتصالية للنص ، ذكرا نماذج له مثل التقارير الإخبارية و القصائد ، و إشارات الطريق و غيرها⁽¹⁹⁾. و هو بذكره لهذه النماذج الأخيرة يقسم النص إلى نص طويل "تقارير و قصائد" ، فيحدد أن النص قد يكون مكونا من عدد كبير من الجمل، و القسم الثاني هو النص القصير "إشارات التحذير" ، و التي غالبا ما تكون مكونة من كلمة واحدة أو جملة واحدة.

و إلى جانب ذلك نجد "هرفج" في تعريفه للنص يؤكد أيضا على ظاهرة امتداد أو طول النص أو كثرة جملة المنشأة عن طريق التجاور، و هو تجاور يقوم على أساس الترابط المباشر و المدعم بعلاقات نحوية أفقية تجعل كل جملة من النص في حاجة تماسكية مع الجملة التي تليها، و ذلك بقوله عن النص: << هو ترابط مستمر للاستدلالات السننجمية ، التي تظهر الترابط النحوي في النص >>⁽²⁰⁾.

و هناك من عرف النص على أساس تداولي، و من هؤلاء⁽²¹⁾: هاينه التي تقول: "النص مجموع الإشارات اللغوية التي ترد في تفاعل اتصالي" ، و منهم أيضا هارتمان الذي يقول: "النص

علامة لغوية أصيلة تبرز الجانب الاتصالي و السيميائي " ، و تقول أيضا في ذات السياق "جان ماري": "النص سلسلة لسانية محكية أو مكتوبة و تشكل وحدة تواصلية".

و إلى جانب هؤلاء هناك من عرف النص على أساس دلالي أو في إطار بعده الدلالي و من هؤلاء⁽²²⁾: "برينكر" الذي يقول: "النص مجموعة منظمة من القضايا أو المركبات العضوية تترابط بعضها مع بعض على أساس محوري موضوعي من خلال علاقات منظمة دلالية" ، كما يقول "فاينريش" : "النص تكوين حتمي يحدد بعضه بعضا تترابط أجزاؤه من جهتي التحديد و الاستلزام ، و هذا ما يسمى بالوحدة الكلية أو التماسك الدلالي" ، و يقول "اورزنيك" : "النص بنية سطحية ، توجهها و تحفزها بنية عميقة دلالية.

و هناك من اللسانيين من بنى تعريفه للنص على الأساسين الدلالي و التداولي في آن واحد و قد جاء في هذا الإطار تعريف الباحثين: "براون" و "يول" للنص حيث قالاه عنه: >> التسجيل الكلامي لحدث تواصلية. و لكن عددا من الكتاب سعوا إلى الإتيان بتفسير أكثر ضبطا و أكثر تقنيًا و اهتم هؤلاء الكتاب بمبادئ الترابط "الوصل و الفصل" التي تربط أجزاء النص بعضها ببعض<<⁽²³⁾ فالباحثان بإلحاحهما على شرط التواصل في النص يؤكدان فكرة أن النص يجب أن يكون دالا حتى يتحقق ذلك المفهوم أي الحدث التواصلية كما يبينان نظرتهم تلك على مبدأ التماسك النصي التي أشار إليها الكثير من اللسانيين.

و يذهب "تون آ فان دايك" في تحديده للنص المذهب نفسه حيث يؤكد أنه:>> تسلسل من الجمل ذات طول غير محدد، و مثال ذلك النص المشكل من عديد الجمل كما يمكن للنص أن يتألف من جملة واحدة، أو حتى من كلمة واحدة، و ذلك كما في الأمر "تعال"، و يشترط في كل جملة أن تساهم في الاستمرارية الزمنية للنص. و الجملة قد تكون مكتوبة أو ملفوظة مملوكة وحدة معينة. حيث إن أهم معيار يحدد وحدة النص إنما يخص مضمونه، إذ يجب أن يكون النص متماسكا لكي يشكل وحدة، و يضاف إلى ذلك معيار الوظيفية، إذ يجب عليه أيضا أن يمارس وظيفة محددة. و بهذا فقط يمكن أن نصف النص بأنه إنتاج⁽²⁴⁾.

أما "روبرت دي بوجراند" فإنه يقدم لنا تعريفا جامعًا مانعا للنص حيث يقول أنه:>> حدث تواصلية يلزم لكونه نصا أن تتوفر له سبعة معايير للنصية Textualité مجتمعة ، و يزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير:

- السبك أو الربط النحوي Cohésion
- الحبكة أو التماسك الدلالي Cohérence
- القصد أي هدف النص Intentionnalité
- القبول أو المقبولية و تتعلق بموقف المتلقي من قبول النص Acceptabilité
- الإخبارية أو الإعلام أي توقع المعلومات الواردة فيه أو عدمه Informativité
- المقامية و تتعلق بمناسبة النص للموقف Situationalité
- التناص Intertextualité (25).

و يحدد كل من "هاليداي" و "رقية حسن" أن النص : كل قطعة شفوية أو مكتوبة طالت أو قصرت و كونت كلاما موحدًا أي متماسكا ، فأية فقرة منطوقة أو مكتوبة ، قصيرة أو طويلة تعد نصا ، فهو وحدة اللغة المستعملة و ليس محمدا بحجم و هو أيضا يختلف عن الجملة في الشكل و النوع. كما أنه وحدة دلالية (26) و كما هو واضح فإن الباحثين يؤكدان أن أهمية النص تكمن في معناه لا بكونه مكتوبا أو غير مكتوب أو قصيرا أو طويلا ، و يؤكدان أيضا أهمية ارتباطه بالسياق أو الإطار العام الذي يرد فيه كما يجب النظر إليه باعتباره وحدة دلالية تتكامل فيها المعاني أو تتربط بشكل وثيق. هذا دون إغفال الدور الوظيفي المهم الذي يلعبه المتلقي أحيانا ، و أما بالنسبة لحجم النص أو طوله فإن الباحثين يؤكدان أن لا أهمية لطول النص قد يكون كلمة واحدة أو كلمتين أو شبه جملة أي أنه ليس بالضرورة أن يكون النص جملة أو أكثر و قدما لذلك أمثلة: العناوين و اللوحات الإشارية و اللافتات الإعلانية و الإهداءات و التحذيرات و الشعارات الرياضية علما بأن هذه الأخيرة لا تعد نصا في نظر البعض حيث أنها لا تفهم إلا إذا وضعت أو ربطت بسياقها الدلالي.

و امتدادا للرأي "فان دايك" و "ديوجراند" و كذلك رأي الباحثين "هاليداي" و "رقية حسن" جاءت أغلب آراء اللسانيين العرب الذين لاحظنا أن آراءهم - أو قل كلامهم - حول النص عبارة عن ترجمات حرفية لما قاله اللسانيون في الغرب و من هؤلاء الأستاذ "محمد خطابي" حيث وجدنا رأيه في النص ترجمة حرفية لما قاله "هاليداي" و "رقية حسن" ، يقول "محمد خطابي" عن النص: >> تشكل كل متتالية من الجمل - كما يذهب إلى ذلك "هاليداي" و "رقية حسن" - نصا ، شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات ، أو على الأصح بين بعض عناصر هذه

الجملة علاقات ، تتم هذه العلاقات بين عنصر و آخر وارد في جملة سابقة أو جملة لاحقة ، أو بين عنصر و بين متتالية برمتها سابقة أو لاحقة. يسمي الباحثان – أي هاليداي و رقية حسن – تعلق عنصر بما سبقه علاقة قبلية و تعلقه بما يلحقه علاقة بعدية... النص يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، نثرا أو شعرا حوارا أو مونولوجا، يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها... إن النص وحدة دلالية، و ليست الجملة إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص... أضف إلى هذا أن كل نص يتوفر على خاصية كونه نصا يمكن أن يطلق عليها "النصية"، و هذا ما يميزه عما ليس نصا. فلكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة <<(27).

و بعد هذا العرض الموجز لـ "محمد خطابي" عن النص ، و هو كلام مستشف من رأي "هاليداي" و "رقية حسن" كما ذكرنا آنفا ، يمكن لنا أن نقول أن "خطابي" قد ركز في ذلك على النقاط الآتية:

- النص هو تعبير مكون من مجموعة جمل متتالية أي متجاورة و قد يكون النص أيضا مكونا من جملة واحدة لا غير .
- يكون ذلك التجاور بين الجمل على أساس علاقة معينة ، و قد تكون تلك العلاقة بين الجملة و الجملة التي تليها ، فهي إذن علاقة بعدية كما قد تقوم بين الجملة و الجملة التي تسبقها فهي إذن علاقة قبلية ، و قد تكون أيضا بين جملة و عنصر في جملة إما سابقة أو لاحقة.
- النص عنده لا يهم أن يكون قصيرا أو طويلا مكتوبا أو غير مكتوب شعرا أو نثرا حوارا أو مونولوجا إلى غير ذلك من أشكال التعبير اللغوي.
- النص عنده قد يحمل فكرة واحدة أو موضوعا واحدا "وحدة دلالية" كما قد يكون حاملا لأكثر من فكرة أو أكثر من موضوع.
- يشترط في النص حتى يكون نصا أن يمتاز بالنصية، و هي وجود عناصر التماسك و الاتساق النصي التي تربط بين جملة فتجعل منه نصا متسقا شديد التماسك. ولم يكن "محمد خطابي" وحده من ذهب هذا المذهب بل وجدنا ولاحظنا أن جميع اللسانيين العرب كرروا هذا الكلام الذي قاله "هاليداي" و "رقية حسن" حول النص، فهذا "عبد المالك مرتاض" يقول في كلامه عن النص ما يلي: >> قد يتصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصا قائما بذاته مستقلا

بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الأدبية كالأمثال الشعبية و الألفاظ و الحكم السائرة و الأحاديث النبوية التي تجري مجرى الأحكام و هلم جرا <<(28)، فالنص عنده قد يكون جملة أو قد يكون أكثر.

و اقرأ أيضا ما يقوله "نور الدين السد" في هذا الصدد حيث نجده يحدد مكونات النص في وجود جملة أو أكثر ثم يقول: <<النص يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، نثرا أو شعرا حوارا أو مونولوجا يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها... و النصية تميز النص عما ليس نصا... و لكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تسهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة، و لتوضيح ذلك نضرب المثال الآتي: "اقطف قليلا من الزهور، ضعها في مزهرية قاعة الاستقبال"، غني عن البيان أن الضمير "ها" في الجملة الثانية، يحيل قليلا إلى "الزهور" في الجملة الأولى، وما جعل الجملتين متسقتين هو وظيفة الإحالة القبلية للضمير "ها" و بناء على ذلك فإن الجملتين تشكلان نصا <<(29).

و ما قيل عن هؤلاء "خطابي" و "مرتاض" و "السد" يقال عن غيرهم من اللسانيين العرب الذين لم يخرج كلامهم حول النص عن الدائرة التي رسمها لهم اللسانيون الغربيون سواء في ما خص تعريف النص و طبيعته و مكوناته أم في ما خص النصية المرتبطة بضرورة وجود وسائل أو عناصر التماسك و الاتساق باعتبارها عناصر مهمة يجب على الجمل المكونة للنص أن تعتمد عليها في تجاوزها و ترابطها. و المؤكد هاهنا أنه كلما كثرت هذه الوسائل الاتساقية كلما قوي ترابط و تماسك النص و العكس صحيح أي كلما قلت هذه الوسائل ضعف التماسك بين جمل النص الواحد. و على هذا الأساس اكتست هذه العناصر الاتساقية أهمية كبيرة و من ثم وجبت دراستها و كان تحليلها أمرا ضروريا مفروضا على كل باحث لساني. و ذلك كله للوصول إلى مفهوم النص المتسق أو النص الذي يمتاز بالنصية، و قبل الاستمرار في هذا الحديث نرى أنه من الواجب علينا أن نطرح سؤالا عن الاتساق فنقول بناء على ذلك:

- ما هو الاتساق؟

و للإجابة عن هذا السؤال الذي طرحناه يمكن القول أن الاتساق هو: << مفهوم دلالي ، إنه يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص ، و التي تحدده كنص >>(30) ، و بعبارة أبسط هو تنظيم المعاني داخل النص الواحد و تقويتها عن طريق أدوات لغوية تساهم في

ذلك التنظيم من خلال ربط الجمل المكونة للنص ربطا وثيقا مما يوفر جوا تماسكيا يرقى بالنص إلى درجة النصية ، و غالبا ما يتحقق ذلك التماسك النصي عن طريق مبدأ التبعية ، إذ لا يمكن لعنصر أن يفهم إلا بوجود عنصر آخر إما قبله أو بعده باعتبار أن العنصرين يشرحان بعضهما أو يحيلان إلى بعضيهما هكذا: >> تسهم كل جملة في فهم ما يليها من جملة أخرى ، كما تسهم المتقدمة في فهم المتأخرة ، فلا يتحقق من خلال معاني الأجزاء فحسب بل من خلال تأثر هذه المعاني في بنية كلية كبرى>>⁽³¹⁾ و على هذا الأساس الدلالي يتحقق الاتساق في النص .

و بعد هذا الشرح يمكن طرح سؤال آخر و هو: ما أدوات الاتساق؟ و للإجابة عن هذا السؤال يمكن القول أن الإحالة Anaphore و الاستبدال Substitution و الوصل Connexion و الحذف Ellipses و الترتيب Classement و التضام Collocation و التكرار Récurrence هي أهم أدوات الاتساق أو عناصره فيما حدده باحثو لسانيات النص.

ولا نترك هذا المقام حتى نشير إلى أن الروابط النحوية و الروابط الدلالية غير كافية لوحدها في تحقيق الاتساق النصي ، فهناك الجوانب التداولية التي تساهم أيضا في تماسك النص و اتساقه و هذا ما أكدده و دعا إليه أصحاب النظرية التداولية و ثبت فعلا ذلك عند التحليل اللساني للنص أو لأي منتج نصي مهما كان شكله أو جنسه ، حيث أن تحديد معنى النص يرتبط في كثير من الأحيان بالسياق العام الذي ورد فيه فمدلولات السياق تعمل على ملء فراغات النص و الإجابة عن عديد التساؤلات التي تنشأ حول النص أو حول الظروف التي خلقتها، ذلك ما يذهب إليه "هاليداي" و "رقية حسن" حين يؤكدان أن كل نص له سياق أي ظروف معينة أدت إلى إنتاجه و إخراجها للقارئ على هذا الشكل أو ذاك ، فتصبح تلك الظروف تتحكم في معاني و دلالات ذلك النص المنتج و النص بصفته يميز بالتماسك فأية نقطة أو جملة بعد البداية - أي بداية النص - ترتبط بما سبقها و بالبيئة المحيطة ، و في نفس الصدد يضيف الأستاذ " صبحي الصالح" قائلا: >> إننا حينما نقول إن لإحدى الكلمات أكثر من معنى في وقت واحد إنما نكون ضحايا الانخداع إلى حد غير قليل: إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعنيه سياق النص>>⁽³²⁾ .

كما وجدنا "فيرث" يلح على أهمية السياق في التماسك النصي حيث يرى أن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة⁽³³⁾ ، و قبل هؤلاء جميعا نبه الإمام "الباقلائي" إلى ذلك بقوله: >> إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع و تزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى بل تتمكن فيه ، و تعزب بجيرانها و تراها في مكانها و تجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها و تجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار و مرمى شراد و نابية عن استقرار<<⁽³⁴⁾ .

فإذا كان "الباقلائي" يلح على استدعاء السياق عند تحليل الكلمة أية كلمة ، فمن باب أولى فإنه يجب استدعاء السياق عند تحليل أي نص مهما كان هذا النص ، و لعل هذا هو السبب الذي جعل المفسرين الذين شرحوا القرآن و فسروه يستعينون في تفاسيرهم تلك بعلم أسباب النزول أي أسباب نزول الآيات ، و الأمثلة على هذه القضية كثيرة جدا يضيق المقام بنا لذكرها أو سردها و لهذا نكتفي بهذه الإشارة إليها ، كل ذلك يعد دليلا واضحا على أهمية استدعاء السياق في تحليل و معالجة أي نص قرآنا كان أو حديثا نبويا شريفا أو شعرا أو رواية أو قصة أو.....

و لهذه الأهمية التي يكتسيها السياق في فهم معاني النص كان واجبا علينا الاستعانة به — أي بالسياق — أو بالإطار التداولي للنص و ذلك أثناء تحليلنا لظاهرة التماسك النصي في أي نص نهم بدراسته.

الهوامش:

1. ابن منظور: لسان العرب، مج6، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 1999م، مادة "ن ص ص"، ص:196.
2. الزبيدي محمد مرتضى: تاج العروس ، تح: علي شيري ، مج9 ، دار الفكر بيروت لبنان ، دط ، 1994م مادة "ن ص ص" ، ص:369.
3. صبحي الفقي: علم اللغة النصي ، دار قباء ، القاهرة مصر ، دط، 2000م ، ص:28.
4. صبحي الفقي: المرجع نفسه، ص:28.
5. خليل بن ياسر البطاشي: الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ، دار جرير عمان الأردن، ط1 ، 2009م ، ص:21.

6. أبو خرمة عمر: نحو النص ، عالم الكتب الحديثة اريد الأردن ، دط ، 2004م ، ص:25.
7. ابن جني: الخصائص مج 1 ، تح : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، دط ، 2000م ، ص:193.
8. ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، مج 1 ، تح: محمد محي الدين ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان ، دط 1995م ص:41.
9. ابن قتيبة: أدب الكاتب ، تح: حسن تميم وعبد المنعم العريان ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1993م ، ص:54.
10. القلقشندي أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج 2 ، دار ابن كثير للطباعة ، بيروت لبنان ، دط ، دت ، ص:392.
11. خليل بن ياسر البطاشي: الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ، ص:23.
12. ينظر: منذر عياشي: العلاماتية و علم النص ، المركز الثقافي العربي ، مدينة الدار البيضاء المغرب الأقصى ، ط 1 2004م ص:138.
13. ينظر صبحي الفقي: علم اللغة النصي، ص:29.
14. ن. ي. كولنج: الموسوعة اللغوية ، مج 1 ، تر: محي الدين و آخريين ، جامعة الملك سعود الرياض ، عدد 1424 ص:207.
15. منذر عياشي: المرجع السابق، ص:110.
16. ينظر صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص ، عالم المعرفة ، الكويت الكويت ، دط ، 1992 ، ص:230.
17. ينظر سعيد حسن بحيري: علم لغة النص ، مؤسسة المختار ، القاهرة مصر ، ط 1 ، 2004م ، ص:35.
18. ينظر سعيد حسن بحيري: المرجع نفسه ، ص:36.
19. David Crystal (1987) the Cambridge Encyclopedia of language ,p,43
20. ينظر صبحي الفقي: المرجع السابق، ص:32.
21. تغريد الشميري: اللسانيات النصية بين النشأة و المفهوم (تعريف النص) www.Iwan7.com

22. تغريد الشميري: اللسانيات النصية بين النشأة و المفهوم (تعريف النص) الموقع نفسه.
23. ج.ب. براون ، و ج. يول: تحليل الخطاب ، Discourse Analysis Cambridge ، University Press, London & New York 1983، ص:227.
24. Teuon Van Dayk, Some Aspects of text Grammar, monton, p.26.
25. روبرت دي بوجراندا: النص و الخطاب و الإجراء ت: تمام حسان ، دار عالم الكتب القاهرة مصر ، ط1 ، 1998م ص:103.
26. Halliday M.A.K. And Ruquaya Hasen,(1976), Cohesion in English, Longman London ,p:2
27. محمد خطايي: لسانيات النص ، المركز الثقافي العربي ، مدينة الدار البيضاء المغرب الأقصى ، ط1 ، 1991م ص:16.
28. عبد المالك مرتاض: في نظرية النص و الأدب ، (مقال) يومية المجاهد (الجزائر) ، عدد: 1424.
29. نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب ، دار هومة الجزائر ، دط ، دت ، ص:68.
30. محمد خطايي: لسانيات النص ، ص:15.
31. ينظر منذر عياشي: العلاماتية و علم النص ، ص:111.
32. عزة محمد: علم لغة النص، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، ط1، 2007، ص: 189.
33. Halliday& Hasen, Language, Context and Text, Oxford University Press (1989) p, 48.
34. ينظر أحمد مختار عمر: علم الدلالة، دار الكتب القاهرة مصر، ط5، 1988م، ص: 68.
35. الباقلائي: إعجاز القرآن ، تح: علي منصور ، دار إحياء العلوم بيروت لبنان ، ط1 ، 1993م ، ص:188.